بنى امة

قرأت في المقتبس الصادر يوم ١٦ كانون الاول الفائت جملة فلسفية بديعة للدكتور غوستاف لوبون فيها ان « الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات وتبنى الممالك) .

وقرأت ايضاً في الجزء الاول من محاضرات هذا المجمع الزاهي كلاماً جميلاً لحضرة الاستاذ انيس سلوم يفند به « زعم فريق كبير من الناس — وخصوصاً في هذه السنين الأخيرة — ان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه يغني عن كل شيء . قال : وهذا الزعم ضلال مبين وأقوال بعض الشعراء بهذا المعنى مخرقة وتضليل اه .

أقول — بل هو امرٌ وأدهى . هو سمٌ زعاف اذا ما سرى في جسم الامة قتل الشجاعة والاباء والشمم . وقضى على حب الوطن وعلى حب التضحية لاجله . واعدم الصدق والامانة والثقة . واهلك اسباب التضامن والتعاون والاتحاد وما الى ذلك من الأخلاق والفضائل والمبادئ التي عليها تقوم الجمعيات والشركات والحكومات . التي عليها تبنى الامم وبها تتقوى الممالك .

وعلماء الاجتماع من الغربيين انفسهم يضعون المال في المرتبة الرابعة والأخيرة بين القوى التي تبنى عليها الممالك وتقوم المشاريع والمؤسسات والشركات والجمعيات . فالأخلاق عندهم في المرتبة الاولى . والعلوم في المرتبة الثانية . والعبقرية في المرتبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثالثة . وآخر الكل المال . لانه خادم لا سيد . واسطة لا غاية .

ومما يؤسف له ان جلّ المؤلفين وحملة الأقلام بيننا شرعوا يكتبون داعين الى الماديات والى حصر اهتمام الشرقيين بها بحجة ان النقوية الاقتصادية لازمة لتقوية الشرق إزاء الغرب .

ولا أراني مخطئاً اذا ما قلت ان اولئك الكتّاب الأفاضل انما ينشرون هذه الدعوة لغرض شريف هو وجوب التدرع بالماديات اتقاء لخطر الوقوع في براثن الغرب المتحفز للوثوب والافتراس . اعتقاداً منهم بان هذا الغرب لم يتوفق الا بالماديات وان الماديات وحدها هي سبب عظمته وسر تفوقه .

هذا وهم أحاول الآن ازالته حباً بخيرنا البعيد ونفعنا الآجل . ونحن الآن في طور تكوين قومي شارعون في بناء أمة ذات كيان معلوم .

فالاساس التي شيد الغرب عليها عُمُد مجده وسؤدده انما هي المعنويات اولاً . هي الأخلاق المتينة التي تحلى بها مصلحوه وزعماؤه وقادة الرأي العام عنده . هي المبادئ القويمة التي اتصفت بها رجالاته المتسلمون مقدراته . هي التربية السياسية القومية والوطنية والاجتماعية التي عمت شعوبه فجعلتهم متضامنين متحدين متعاونين — يتبادلون الثقة ويضحون بطيبة خاطر كل شيء لاجل المصلحة المشتركة والنفع العام على قاعدة الواحد للكل والكل للواحد .

كذلك ارجو الا يتوهمن احد من اخواني الشرقيين بان اهل الغرب كلهم من الماديين والنفعيين . فلقد قرأت كثيراً لعدد كبير من كبار كتّابنا وخطبائنا بشأن الاستقلال الاقتصادي وما يتعلق به مما يحمل على الظن بان اخواني الشرقيين اجمعين يزعمون شيوع المادية والنفعية في اوربا واميركا . وتضاؤل المعنويات والمبادئ والفضائل أمامها .

فأولئك الأفاضل من الكتّاب معذورون لانهم لم يسكنوا في اوربا واميركا فيعرفوا عقلية الغربيين وحقيقة نفسانيتهم : والحكم على أمة باجمعها لا يتيسر الا لمن يدرس عقلية تلك الامة (بسيكولوجيتها) . لذلك ترى الدول الكبيرة ترسل عشرات من رجالها الممتازين الى كثير من البلدان حيث يصرفون السنين الطوال تارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(بمأمورية) ظاهرية وطوراً بلاوظيفة بل لاجل مساكنة القوم ومعاشرتهم ومعاملتهم ومخالطتهم والاحتكاك بهم مدة طويلة لدرس عقليتهم التي عليها يبنون حكمهم في تقاريرهم الرسمية وعلى هذه التقارير المعوّل في الشؤون الخطيرة .

فالذي أتيح له منا المكث في بلاد الغرب وعاشر الطبقة الراقيـة والمتعلمة والمتهذبة من أقوامه زمناً طويلاً يعرف بالخُبر — لا بالخبَر — ان الدماغ المفكر في أمم الغرب والعصب المحرك و (الفقرة الظهرية) هم من غير رجال المال . هم من رجال المبادئ الوطنية والادارة والزعامة المبنية على الأخلاق والكفاءة المعنوية . هم من أصحاب المهن الحرة من علماء وأطباء ومحامين وصحافيين ومؤلفين وممثلين وواعظين ومزارعين . هؤلاء هم روح الامة . هؤلاء هم (ڤيتامينها) . وما المتمولون سوى العظم والعضل . لا القلب ولا الدماغ ولا النفس .

نعم انهم في الغرب يكدون ويكدحون ويجدون ويجتهدون ويشتغلون . يشتغلون اكثر منا بكثير ويكدون باهتمام فلما تراه بيننا . ولطالما كنت ارى رجالاً من كبار اطبائهم واغنيائهم واصحاب المعـامل والمزارع يشتغلون من ١٢—١٤ ساعة يومياً . ولكنهم انما يعملون حباً للعمل لاحباً بالمال . فحب العمل لاحشد الثروة فضيلة عندهم . والثروة اذا أتت فأهلاً بها وسهلاً . واذا لم يتوفقوا اليهـا فلا هم يحزنون . ولا هم ينوحون . ولا هم يولولون . ولا هم يذأون . بل على العمل يثابرون وعلى البشـاشة والارتياح والشمم وعزة النفس يظلون .

أو ليس هـذا خلق عربي أصيل ؟ أنسينا قول علي بن ابي طالب يصف الرجل الرجل بانه من (لا يذل لفقر ولا يبطر لغنى) .

فما الذي دهانا حتى صرنا أميل الى اقتباس المضر من مظاهر المدنية الغربية ناسين ما تركه لنا السلف الصالح من أخلاق عالية هي هي الاصل في بناء الامم وقيام المؤسسات ورقي الجماعات .

ان الاميركيين المشهورين بانهم من أصحاب الثروات الطـائلة معروفون بانهم من رجال الأعمال اولاً وبعـد ذلك من رجال الاموال . ليس ذلك فقط بل انك تسمع من على منابرهم الدينية والتمثيلية والنيابية والسياسية . ونقرأ في كتبهم ومجلاتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الراقية خلاف ما هو شائع عنهم وخصوصاً في الشرق من جراء نفر قليل من أصحاب الملايين منهم أبطرتهم تلك الملايين . فالعبرة بالاكثرية الغالبة وليس بالقلية تراها دائماً وابداً هدفاً لسهام الناقدين من رجال العلم والأدب والدين . ومعرضة لغضب الادارين والمصلحين والاشتراكيين وسواهم من رجال الطبقة المتوسطة التي هي عماد الامة والتي منها يخرج الزعماء الذين يرشدون الامة الى أسباب عزها ومجدها .

وها خطب روزفلت وماكنلي وبرايان وولسون وغيرهم من أعلام الامة الاميركانية على تباين نزعاتهم السياسية تؤيد بجملتها ما انا بصدده الآن . والرئيس ولسون الذي اشتهر بالحرب الكونية كان من جملة الذين رفضوا هبات بعض المثريين المشبوه بهم وبنوع ثروتهم يوم كان رئيساً لاحدى الكليات العالية . لانه وأسفاه عليه مثل الوف غيره من قادة الرأي العام يقدس المعنى لا المادة . ويعلم الشعب ان العظمة الحقيقية هي في الفضائل الفردية والقومية . هي في مكارم الأخلاق . هي في المبادئ القويمة الشريفة . هي في الوطنية الصادقة . في التضامن القومي . في التعاون والاتحاد وتبادل الاخلاص والثقة والأمانة .

ان اولئك الأعلام من واشنطون الى ابراهام لنكولن الى غلادستون الى ولسون وأمثالهم يعلمون بان الحياة الطيبة التي (تستحق ان نعيش لاجلها) هي في الحرية والاستقلال . وان الاستقلال هو حياة الامة . وان الامة لا تقوم بلا أخلاق . فعلى الأخلاق اولاً تقوم الامم . وبالأخلاق فقط يحفظ كيانها ويدوم استقلالها .

فالمادية الغربية ليست العامل الاعلى او السبب الاكبر في ارتقاء بعض الامم الاوربية والاميركية كما يتراءى الى الذين يأخذون الامور بظواهرها والى الذين فعلت بهم الدعاية السياسية الغربية في السنين الأخيرة . والذين لم يتح لهم الوقوف بالذات وعن كثب على نفسانية الشعوب القوية في الغرب . بل ان السبب الاكبر في ارتقائها هو خلق متين اولاً تجمّل به زعماؤهم ومفكروهم والمتسلمون زمام امورهم . وخلق متين ثانياً تجمل به شعبهم المتربي على الثقة التامة برجاله ووجوب الطاعة لهم وللنظام وللاكثرية . وخلق متين ثالثاً يتربون عليه في البيوت وفي المدارس وفي الجمعيات والنوادي والشركات ودوائر الأعمال الاقتصادية والخيرية والسياسية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعمومية على اختلاف أنواعها وتعدد أسمائها وتباين أغراضها .

سمعت مرة مستر روزفلت يخطب هنا في مدينة سان باولو وبعد ذلك بقليل سمعت خصمه السياسي مستر برايان يخطب هنا ايضاً فأعاد كلاهما تاريخ قرطاجنة وروما وبغداد والاندلس ناسباً ذهاب عز العرب وزوال مجد الرومان ومحو قرطاجنة من سفر الوجود الى انصراف هاتيك الأقوام الى اللهو والبذخ والانغماس باللذات وما الى ذلك من العوامل التي تهدم الأخلاق وتقوض اركان المبادئ والفضائل .

سمعت روزفلت يقول ان انكلترا لم تحكم الهند بقوة الجيش والاسطول والمال . بل باستعداد رجالها وصدق وطنيتهم وعلو تربيتهم وسمو أخلاقهم . سمعته يقول ان الهنود لا يعوزهم المال . فملوكهم وامراؤهم مضرب المثل بما في حوزتهم من الذهب الوهاج الوفير والجواهر التي لا تثمن . وانما يعوزهم الروح — المعنى — المبادئ . الفضائل الفردية والقومية التي أحاول تعزيزها في هذا المقال .

وان انس فلن انسى خطاباً لمستر ماكنلي رئيس الامة الاميركانية يوم الحرب الاسبانية عام ١٨٩٨ القاه في مدينة سانت لويس حيث كنت أطلب العلم في جامعتها فقال :

نعم اننا قد انتصرنا على الاسبانيين في كوبا والفيليبين ولكننا لم نفز بالاسطول بل بالرجال الذين قادوا الاسطول . لم تصل الامة الاميركية الى هذا العز والمجد بجيشها النظامي ولا بما في خزانتها من المال . بل بما في صدور رجالها ونسائها من المحبة للوطن والاستعداد لتضحية كل شيء في سبيله » .

ولعمري ما نفع اسطول او جيش او خزانة ملأى بملايين من الذهب او دولة كبيرة يقودها رجال لا اخلاق لهم ولا وجدان .

وانما الامم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ما الفائدة من الذهب والالماس على امير هندي مثلاً يشعر من نفسه بانه صغير أمام أصغر متوظف انكليزي في بلاده . ما الفائدة من هاتيك المهاراجات بل تلك التماثيل الذهبية المتحركة التي وهي على أفيالها يحلي الانكليز بها حفلاتهم ويزينون مواكبهم .

كان دوق ولنغتون بطل معركة واترلو حاكماً عاماً على الهند قبل ان استدعته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حكومته لمحاربة نابوليون بونابارت فأتى اليه مرةً احد أمراء الهند وعرض عليه أموالاً طائلة وجواهر نفيسة لكي يعزل اخاه من إمارة احدى المقاطعات ويعينه مكانه . أصغى الدوق الى كلام الامير صاحب المال الوفير والجاه العريض . ولم يكن ذلك الكلام سوى اغتياب ووشاية ونميمة وحسد وما أشبه من تلك (المبادئ) ... فلما انتهى الامير نهض الدوق وفتح الباب وقال له غاضباً :

أتحفظ السر ؟ نعم يامولاي . إذاً إياك إياك ان تدع احداً يعرف بانك تجاسرتَ وعرضتَ عليَّ لترشوني وتشتري ضميري . وانا اعدك مقابل ذلك بكتمان الامر عن اخيك وسواه طالما انا في هذه البلاد . اذهب ولا تعد الى مثل هذه الصغائر .

امراء ووجهاء وزعماء واغنياء يكذبون ويحسدون ويكيدون ويخونون ويغتابون — ويستعملون أحط الوسائل ويتوسلون بشرّ الأساليب للنيل من الغير او لنيل مجد باطل او زعامة وهمية او سلطة زائفة . ولكنهم أمام رجل فقير بمادياته غني بادبياته كالدوق ولنغتون يهانون ويحتقرون ويطردون ويشعرون بانهم صغار .

ان هذا الدوق مات فقيراً . ولكن اسمه منقوش بالذهب على صفحات التاريخ .

وعلى الضدّ من هذا يحضرني الآن حادث تاريخي آخر له اثره في تاريخنا الشرقي . خرج محمد باشا البلطجي ظافراً على بطرس الاكبر في معركة نهر البروث المشهورة في التاريخ العثماني . ولكن جواهر الامبراطورة كاترين الاولى التي رافقت زوجها في الحرب بهرت بصر البلطجي : القوي بجيوشه المظفرة فعلاً يومئذ — والضعيف باخلاقه وبوطنيته فارتدّ ذلك القائد الخائن عن ساحة القتال من دون ان يجني ثمرة انتصاره . ليس ذلك فقط بل انه جعل الدولة تعتقد ان جيشها هو الخاسر المهزوم وعلى ذلك الاعتقاد الفاسد عقدت صلحاً مجحفاً مع بطرس الاكبر .

فلا عجب اذاً باهتمام الدول والحكومات والوزراء والقواد (بحالة الجيش المعنوية) في اثناء الحروب .

فرجال الامة المسؤولون يوجهون همهم عند الشدائد الى أدبيات الامة والى معنويات القوات المحاربة قبل كل شيء وبعد ذلك يهتمون بالمؤن والذخائر والاسلحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأساطيل وما أشبه . فما هذه سوى الخدم او ما يقوم مقام الخدم من وسائط الاسعاف . ولكن العبرة اولاً في التضامن القومي . في محبة الوطن ومحبة تضحية النفس والنفيس لاجله . في الشجاعة . في عمل الواجب . في طاعة النظام . في احترام رأي الجماعة . في إهمال النفع الخاص إزاء الاهتمام الكلي بالنفع العام — الى غير ذلك من الفضائل الشخصية والعمومية التي عليها يتوقف النصر وسلامة حياة الدولة وليس فقط على أموالها وجيوشها وأساطيلها .

* * *

بيد انني في هذا المقام لا أجد بداً من القول بان المال قوة . بل هو قوة هائلة ايضاً . والحصول على هذه القوة بالطرق المشروعة مما يأمر به العلم و ينص عليه الدين . فالدين لا يقول بان المال هو الحرام كما ربما فهم بعض المتقشفين وخصوصاً في الشرق . بل يقول ان عبادة المال هي الحرام . والعلم يأمر بالعمل لكي نحصل على حاجيات المعيشة وان أمكن فعلى كمالياتها . وكلا الدين والعلم يقول بان الكسل حرام والبطالة عيب . كلاهما يعلّم بان العمل شريف مهما كان نوعه . وان العار كل العار هو في الحاجة الى الغير . في (ذل السؤال) كما قال فيلسوف العرب علي بن ابي طالب .

وفلاسفة الاجتماع والدين من زمن ارسطو . الى زمن بولس . الى هذه الايام يعلّمون بان الحاجة والاستقلال ضدان لا يجتمعان . و بان العوز عدو للدود لكرامة النفس . و بان الاستقلال و كرامة النفس لا يحفظان بلا عمل منتج .

المديون مستعبد للدائن . والسائل صغير أمام المسؤول . والمحتاج الى الغير دائماً وابداً لا يشعر بلذة الحرية والاستقلال لا في بيته ولا في عمله ولا في وطنه . وبولس للتلبغة الشرقي لمظالم الذكر تعاطى صناعة الخيام احتفاظاً بكرامته و باستقلاله الفردي وحريته الشخصية . وما يصح على للفرد يصح على الامة لانها مجموعة أفراد .

انما الذي يحرمه الدين والعلم والعرف هو تسخير الضمير . وقتل العاطفة . واماتة الحنان والوفاء . وتمزيق الوية الوطنية لارضاء الالٰه الاصفر الوهاج . كلاهما يلعن عابد المال وكلاهما يقول ان غنى النفس غنى الذاتية القائم على الأخلاق والفضائل والمبادئ — هو الغنى الحقيقي الثابت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين فقراء اليوم عدد كبير كانوا من اغنياء الامس . وبين صعاليك اليوم عدد كبير من وجهاء الامس . لا لسبب سوى ان ثروتهم ووجاهتهم لم تؤسس على صخرة الخلق المتين . ولكن الاغنياء بمعنوياتهم . والزعماء بفضائلهم وكفايتهم وحسن استعدادهم . والوجهاء باخلاقهم العالية . والكبار بنفوسهم هم هم في حالتي اليسر والعسر كعبة القصاد وقبلة الاكرام والاحترام اينما حلوا ومهما احترفوا .

قلّ بين الادباء من لم يطالع رواية شكسبير المدعوة (تاجر البندقية) . حبذا لو كانت لي بلاغة ذلك الشاعر النابغة لكي أصف كيف ان (شايلوك) بطل الرواية — وهو مراب يهودي — عندما فاجأه نسيبه طوبال بنبإ هرب ابنته الوحيدة ليلاً مع عشيق لها هو خصم لوالدها ومن غير ملته ومهنته بادره ذلك المرابي على الفور بذعر ورعب ولهف : وهل اخذت معها صندوقة المال والجواهر ؟

لم يكترث ذلك الغني بامر ابنته فلذة كبده وهي وحيدته . لم يهتم للكرامة وللناموس وللسمعة او لمثل هذه الكلمات التي لم توجد في قاموسه . ولكنه حصر اهتمامه بربه ومعبوده المال .

عن مثل هذا ينهانا الدين والعلم والعرف والأدب . وليس عن السعي بشرف للحصول على المال . فهو قوة كبيرة كما أسلفت قلت ولكنه في المرتبة الرابعة لا في المرتبة الاولى بين القوى التي تبنى عليها الممالك وتقوم المشاريع .

ليس ذلك فقط بل ان المال اذا لم يكن مصحوباً بخلق سامٍ وضمير حي وتهذيب عال وتربية قويمة فهو مصيبة على صاحبه ولعنة على المجموع — وكذا العلم فانه بلا أخلاق لعنة — واصل الآية لأناطول فرانس (العلم بلا ضمير لعنة) ولطالما ردد غلادستون هذه العبارة : « انني أعجب بالرجل الذكي العالم ولكنني أحترم الرجل الأمين الصادق » وجورج هربرت العلامة الاجتماعي الكبير كانت آيته الذهبية « حفنة من الخُلق ولا غرارة من العلم » . وطولستوي كتب : « ان الذكاء ابن العقل . اما الاخلاق فبنت القلب . وانني اثق بما يصدر عن القلب . وبلا ثقة متبادلة لا تقوم للجماعة او الامة قائمة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا مطابق لما ذكره الفيلسوف الفرنسوي إرنست رِنان من ان الامة هي روح عامة ·

وعندي ان قول الكواكبي الفيلسوف العربي الحلبي بهذا الصدد ابلغ واجمل · فانه — والف رحمة عليه — شرح هذه القصيدة الاجتماعية بناموس رياضي مبني على اولية لا تقبل الجدل · فبعد ان اوضح لزوم التضامن لبقاء المبدإ الروحاني او الروح العامة · اي لبقاء الامة بالمعنى الدولي المصطلح عليه في علم السياسية والاجتماع قال ان التضامن وتبادل الثقة هو القوة مضاعفة على نسبة ناموس التربيع · وهذا وحده يولد الاستمرار على الاعمال الكبيرة التي لا تكفيها اعمار الافراد ·

وقد نُقل عن لسان الدكتور فان ديك ان الشرقي قوي بمفرده ضعيف بمجموعه · وكاتب هذه السطور يعلم بالخُبر بان الغربي لا يفوقنا بمفرده ولكنه بلا ادنى ريب متفوق علينا بمجموعه · ولما ذا ؟ لان الروح العامة ليست موجودة في الشرق · ولان الثقة التي هي اساس التضامن والتعاون ضعيفة ان لم اقل انها مفقودة · وهذا بالرغم من وجود الذكاء الفطري ومن وجود العلم ومن وجود الماديات ايضاً فان هذ ليست بقليلة عندنا خلافاً لما يظن الذين لم يطلعوا على الاحصاآت الدقيقة عن عدد الأُميين والمعوزين في كثير من البلدان الاوربية والاميركانية والذين يقيسون الغرب كله على عدد قليل من أُمه الراقية الغنية ·

فنحن السوريين من أقوى الناس عقلاً واحدّهم ذهناً بشهادة الغربيين انفسهم · والعلم لا يعوزنا في هذه الايام لوفرة أسباب التعليم بيننا · انما يعوزنا التضامن لكي نعتاد الاشتراك في الأعمال العمومية والمشاريع الكبيرة والمنافع القومية التي لا تكفيها جهود الفرد ولو جمع أموال الدنيا وعلوم المتقدمين والمتأخرين · حتى ان أعمار الافراد لا تكفيها على ما اوضح العلامة الكواكبي ·

وهذا يفسر لنا عدم ثبات جمعياتنا وشركاتنا ومؤسساتنا العمومية والوطنية والقومية على اختلاف أغراضها وأنواعها ·

أوليست الحكومة جمعية ؟ والدولة شركة مساهمة عمومية قومية مديروها الوزراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتولب . وجملة اسمها افراد الامة المتضامنين المتعاونين المتكافلين المتحدين على قاعدة (الواحد للكل والكل للواحد) .

لا أريد التبسط الآن في هذا الموضوع حذراً من ان يشط بي القلم فيسطر كلمات من نار خارجة من قلب تشتعل به الغيرة على وطنه . بل اقول « لأعقل الناس أعذرهم للناس » . وعذرنا هو ان الشرق رضخ أجيالاً طوالاً لأحكام الجور والظلم والاستبداد وهذا كاف لتنشي الخوف والرهبة وسوء الظن والحذر والانانية والجبن وخور العزائم وما الى ذلك من مثبطات الهمم وعوامل الهدم في الامم . كاف لفشل أي عمل عمومي او مشروع قومي او مؤسس وطني تلزمه مجهودات افراد واعمار افراد لم ثقة بمن يتسلمون مقدراتهم فيضعون اموالهم وارواحهم تحت مطلق تصرفهم خاضعين بطاعة عمياء لنظام الجماعة .

وليت المصيبة تقف عند هذا الحد . ولكن الامر والانكى ان قد فشا بيننا ان « سوء الظن من حسن الفطن » او ان حسن الظن بالناس سذاجة بل بلاهة .

فالطغرائي مثلاً « يوصينا » بلاميته المشهورة ان تظن شراً ... وان نكون على وجل ... والاّ نحسن الظن . الى ان يقول :

وشان صدقك عند الناس كذبهم وهل يطابق معوجٌ بمعتدلِ
وانما رجل الدنيا واوحدها مَن لا يعول في الدنيا على رجل

اقول : ان الطغرائي ذكر صريحاً ما قاله العلامة (فان ديك) تلويحاً عن السبب في قوة الفرد عندنا وضعف المجموع . وهو الاعتماد على الذات في الفرد وفقدان الروح العامة في المجموع . فالاعتماد على الذات من اسباب النجاح . كما ان عدم وجود المبدإ الروحاني في الامة يؤول الى ضعفها فانحلالها .

وحبذا لو ان الطغرائي وغيره من الشعراء قالوا لنا بتبادل الثقة والاخلاص والأمانة وحسن الظن وما اشبه من الفضائل التي تنشئ التضامن والروح العامة في الامة حتى تحتفظ هذه بكيانها القومي اذا كان موجوداً وحتى توجده اذا كان مفقوداً . فهذه الفضائل والمبادئ والاخلاق هي التي تبني الامم . وليس الملايين من البشر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والقناطير من الذهب . لا ولا الكليات والجامعات وحدها ولا طلبة العلم وحملة الاقلام والمبقربين ورجال المنابر ومن على شاكلتهم اذا كانوا بلا اخلاق ولا ضمائر .

أرأيت سيفاً بيد شرير ؟ كيف ترجو النفع الخاص او العام ممن يستعمله . هكذا العلم بلا اخلاق انه وسيلة للشر والاذى وليس للخير والبنيان .

ولا يتوهمن احد بانني أقول بالزهد او القناعة في طلب العلوم والمعارف كما ربما يتبادر الى الذهن لاول وهلة . فانني أفتخر بانني من المولعين بالعلم ومن الذين يعتقدون بصحة القول الانكليزي ان (المعرفة قوة) .

ولكنني ايضاً من الذين يقدسون الحديث الشريف : « أهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد » .

وصاحب هذا القول (ص) كان أمياً . ولكنه بنى أمة .

البرازيل (سان باولو) : سعيد ابو جمرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net